بريد الجمعـــــة

إثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجمعة ١٧ أبريل ١٩٩٨

يكتبه: عبد الوهاب مطاوع

الخيوط المقطوعة !

أنا رجل أشغل منصبا علميا مرموقا نشأت في أسرة طيبة تسودها المحبة والإيثار. وحين بدأت حياتي العملية ووضعت قدمي على أول الطريق أردت أن أتزوج، فاخترت زوجتي من أسرة متدينة لكي تكون معا أسرة صالحة يسودها الحب والمودة والقيم الأخلاقية. ورزقنا الله بالأبناء، وبذلت كل جهدي في تنشئتهم على الأخلاق الفاضلة والقيم السليمة. وكانت ظروفنا المادية تمضي بعد صعوبات البداية المعتادة من حسن الى أحسن. وفي كل حين نحقق لأنفسنا حلما من أحلام الحياة المريحة التي كافحت لتحقيقها الى أن استقرت أحوالنا المادية، وأصبحت مواردنا تغطي نفقات الأسرة، وتوفر لنا السكن المحترم ومتطلبات تعليم الأبناء، وقد حصل الابن الأكبر على الثانوية العامة بمجموع كبير أهله للالتحاق بالكلية التي أرادها لنفسه، وحصل الابن الثاني على الثانوية العامة بمجموع يقل درجتين عن المجموع المطلوب للالتحاق بكلية الطب التي كانت كل أمله وطموحه في الحياة، ومع أنني أؤمن بأن الإنسان يستطيع أن يحقق نجاحه في أي مجال من مجالات الحياة العملية الا أنني لم أشأ أن أكون عقبة في طريق طموحه لأن يصبح طبيبا ولو تحملت في سبيل ذلك ما يفوق قدرتي المادية فوافقت على سفره الى الخارج ليدرس الطب بإحدى الدول الأوروبية الشرقية، لمدة عام دراسي يحول بعده أوراقه لكلية الطب في مصر كما كان يفعل بعض أبناء الأثرياء حتى وقت قريب. وسافر ابني بالفعل الى هذه الدولة وأمضى فيها عاما دراسيا كاملا وتكلفت دراسته وإقامته حوالي ٢٥ ألف جنيه كانت تمثل الجزء الأكبر من مدخراتي، ورضيت بذلك بالرغم مما أرهقت نفسي به من تكاليف لم تكن لي بها طاقة.. ورجع الى مصر والتحق بكلية الطب.. لكنه رجع للأسف انسانا آخر اختلفت مفاهيمه عن الإنسان الذي كان قبل السفر، فلم يعد طموحه أن يكون طبيبا ناجحا كما كان وإنما أصبح طموحه أن يكون ثريا وأن يجد كل شيء بين يديه بغير كفاح ولا معاناة.. وذلك لأن زملاءه الذين سافروا معه، واختلط بهم خلال السفر كلهم من أبناء أصحاب الملايين الذين يريدون الحصول على شهادة الطب من باب الوجاهة الاجتماعية فقط فأصبح ابني يريد أن يكون مثلهم من أصحاب الملايين، وأصبح يريد الحصول على البكالوريوس بأقل جهد ممكن ولا يفكر في بذل الجهد والعرق والالتحاق بالدراسات العليا بعد حصوله على البكالوريوس ليصبح طبيبا مرموقا، وإنما أصبح يريد تحقيق طموحه عن طريق الأحلام والتفكير في مشروعات تدر الملايين بغير وجود المقومات الخاصة بمثل هذه المشروعات لديه أو لدينا.

والمشكلة هي أن زوجتي قد تأثرت هي الأخرى بجو الانقلاب المادي الذي حدث في المجتمع وتقدمت معه الماديات على المعنويات. فشاركت ابني سخطه على أوضاع حياتنا وعلى دراحت تتهمني بالتخاذل والكسل وقلة الحيلة، لأنني لا أستطيع أن أحقق لابني ما تصبو إليه نفسه من سيارة خاصة به، وشقة فاخرة، ودخل كبير يستطيع أن يجاري به بعض زملائه الأثرياء، وباختصار فإنني لم أعد في نظر ابني الأب الذي يليق بطموحاته في الحياة، مع أني أشغل منصبا علميا مرموقا كان ينبغي له أن يضعني وأمثالي على قمة المجتمع الذي نعيش فيه، وللأسف فإنني حين كنت أوضح لابني هذا وجهة نظري في بعض تصرفاته غير اللائقة فإنه كان يتطاول ويرفع صوته علي وكنت أسامحه عند أبسط اعتذار يبديه وأقول لنفسي انه قد أصبح رجلا ولابد لي من أن أعامله معاملة الرجال. وحاولت دائما أن أعامله كصديق وأن أعرض عليه أمور حياتنا وإزالة الحاجز الذي يضعه بيني وبينه الى أن خيل الي ذات مرة أنه قد أصبح يتفهم أوضاعنا فرحت أشرح له موقفي المالي بالتفصيل، وكيف أنني لا أستطيع زيادة دخلي عما هو متاح لي الآن، وكيف ينبغي لنا أن نتواءم مع ظروفنا المادية ونرضى بها وهي ليست سيئة في حد ذاتها وإن لم تكن مرضية لطموحاته الكبيرة، ففوجئت به يرد علي ردا استفزازيا ويؤكد لي أنه لا يمكن أن يتنازل عما تطلبه مني أمه من مطالب مادية واحتدت المناقشة بيني وبينه ونهيته عن أن يخرج على حدود الأدب في حديثه معي، ففوجئت به يثور ثورة عارمة، ويلوح بيده في وجهي.. وينفعل انفعالا شديدا ويقترب مني بشدة فيهجم عليه أخوه الأكبر ويحول بينه وبيني وأنا واقف في مكاني وقد تجمدت أطرافي وعقد الذهول لساني، أما هو فقد اندفع الى المطبخ يريد أن يسحب سكينا ليقتل بها نفسه كما قال، فيقاومه أخوه الأكبر مرة ثانية ويخرجه من المطبخ ويسحبه بعيدا عن المكان.

ولست أدري حتى الآن كيف منحني الله سبحانه وتعالى قوة الإرادة بحيث استطعت أن أتحكم في أعصابي وألا أفقدها في هذا الموقف العصيب، وبعد خروجهما، وجدت نفسي أتوضأ وحزن الدنيا كله يتكاثف في داخلي، وأصلي لله وأناجي ربي أن يكشف عنا هذا الكرب العظيم.. ورحت أتساءل: كيف حدث ذلك وأنا الذي منحت أبنائي العطف والحنان وبذلت المستحيل لتلبية احتياجاتهم.. وكنت أحرم نفسي مما أحتاج إليه لألبي لهم مطالبهم؟

وماذا فعلت حتى أستحق هذا الجحود الأليم من ابني الأصغر.. وكيف هان عليه أن يحدثني وكأني عدو له يريد الانتقام منه ولست أباه الذي يرعاه ويحميه، حتى ترددت في أعماقي الآية الكريمة التي تقول: «إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم» صدق الله العظيم.

وفكرت طويلا في أمر هذا الابن وأمري معه.. وخشيت أن أتصرف معه تصرفا حادا كالطرد أو منع النفقة عنه حتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه، فاكتفيت بعدم محادثته نهائيا وترقبت أن يندم على ما فعل ويعتذر عنه، ووعدت نفسي بأن أقبل اعتذاره حين يعتذر لكيلا تظل الخيوط بيني وبينه مقطوعة النهاية، الا أن الأيام مضت دون أن يحاول الاعتذار لي بأي شكل من أشكال الاعتذار..

والأغرب هو أن زوجتي لم يزعجها ما فعل ابني معي، ولم تلمه أشد اللوم عليه ولم تبادر بإجباره على الاعتذار لأبيه الاعتذار المناسب، مما دفعني لأن أشك في أنها تبارك ما فعل، وفي أنه قد فعل ما يعتقد أنه يرضيها، ولا عجب في ذلك لأنها معجبة به وتدلله وتعتبره السند والملاذ، وقد غرست فيه روح الأنانية غير عالمة بأنه سوف يعاملها بنفس هذه المعاملة حين لا يكون في حاجة اليها، وأنه سوف ينساها ولن يهتم سوى بنفسه بعد أن يكون قد حصل منها على ما يريده وتتحسن أحواله.. انني في شدة الكرب والألم، وأشعر بأن حياتي كلها قد ذهبت هدرا وهباء، ولا يهون علي مصيبتي بابن عاق وزوجة غلبها الطموح المادي سوى أن ابني الأكبر- حماه الله ورعاه- يتصف ببعض صفات الأنبياء في خلقه وصفاء نفسه وبره بوالديه، وعطفه على إسعاد غيره، وهو يأسف أشد الأسف لتصرفات أخيه ويدعو له بالهداية وينصحه بالحسنى ويعامله معاملة حسنة، وانني على يقين من أن الله سبحانه وتعالى سوف يحميه ويفتح له أبواب الرزق الحلال جزاء لبره بأبويه وكريم صفاته، ولأنه يرعى الله في كل تصرفاته، وأنا أدعو الله أن يوفقه في الحصول على عمل مناسب مع من يقدر له أخلاقه الكريمة وشفافيته ومثالياته في زمن عزت فيه مثل هذه المثاليات. أما ابني الأصغر وزوجتي فماذا تقول لهما ولكل الأبناء من هذا الفصيل الذي يتنكر لآبائه لأنهم عاجزون عن تلبية طموحاتهم المادية الكريمة.. في هذا الزمن الذي سادت فيه المادة كل شيء؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

من أهم ضوابط الحياة العائلية.. هو أن يتضامن أفراد الأسرة ضد الطرف المخطئ فيها الى أن يرجع عن خطئه ويندم عليه، ويعتذر عنه.. فالحياة العائلية لا ينبغي لها أن تعرف الحياد السلبي في منازعات أفرادها، وإنما يجب أن يتحمل أعضاؤها مسئوليتهم الأخلاقية والدينية في نهي المخطئ عن خطئه.. وإعادته الى جادة العدل والصواب..

وفي ذلك فإن مسئولية زوجتك عن عدم نهي ابنها الضال عن جريمته في حقك.. وإجباره على الرجوع عنها والاعتذار لك مسئولية كبيرة لا تعفيها منها قوانين السماء، ولا يسقط تقصيرها في أدائها بمضي المدة.. وهي للأسف لم تكتف بالتقاعس عن التضامن معك ضد ابنها الى أن يرجع عن غيه، وإنما شجعته أيضا على الخطأ، والتمادي فيه. فلقد فهمت من رسالتك أن لها مطالب مادية منك تلح بها عليك وتتضامن فيها مع ابنك الذي يطالبك بسيارة خاصة له.. وبسكن أفضل، ونقود أكثر يجاري بها لفاق أصدقائه من أبناء الأثرياء.. وهي في سياق تعاطفها مع ابنها لاتقتنع بأنك غير قادر على تلبية هذه الطموحات المادية، وتؤمن بأن لديك من المال أكثر مما تعلنه، ولهذا فهي لا تعترض على طموحات ابنك المادية، ولا ترده عنها، ولا تطالبه بالرفق بك.. والرضا عن حياته وعما أتيح له من أسباب تكفي لأن يرضى عنها غيره، وإنما تشجعه من طرف خفي على مطالبه، وتتوهم أنها بذلك قد فازت بمودته وحبه ونجحت في تعميق روابطها به.. على حساب انقطاع الخيوط بينك وبينه، وهي حين تفعل ذلك لا تعي أن وحش الأنانية إذا انطلق من عقاله فإنه لا يفرق بين من يحنو على مثل هذا الابن الأناني.. ومن لا يحنو عليه، وأن النفس الأنانية اذا لم تردعها الروادع وتردها الى العدل.. فإنها لا ترى الا مطالبها.. ولا تتسع الا لحب ذاتها.. فضلا عن القاعدة التي تقول أن من أعان ظالما على ظلمه لم ينج هو نفسه من شروره بعد حين، ونحن نجزع اذا علمنا أن ابنا قد جحد أمه وأباه لكننا نجزع أكثر اذا وجدنا المحيط الأسري لهذا الابن لا يتخذ منه موقفا صارما في ادانة جريمته واستنكارها.. ومن الروادع الاجتماعية لمثل هذا الابن الضال أن يشعره كل من حوله بلا استثناء بالرفض القاطع لما فعل، وأن ينبذوه الى أن يرجع عن غيه والا يهادنوه أو يحسنوا معاملته اعتمادا على أنه لم يخطئ خطأ مباشرا في حق بقية أفراد الأسرة.. فمثل هذا الموقف قد يكون مقبولا في علاقات الأفراد الذين لا تربطنا بهم رابطة الدم، ولا تجمعنا بهم رابطة الأسرة الواحدة، أما من يجتمعون تحت مظلة الأسرة الواحدة فلا سبيل لمثل هذا الحياد السلبي مع المخطئ منهم ولو كان خطؤه مقصورا على فرد واحد من أفرادها، وفي مثل هذه الحالة.. فإن كلمة الفقيه المحدث سفيان الثوري التي تقول أن النظر في وجه الظالم خطيئة.. هي الأولى بالاتباع.. وعلى هذا فلا يجوز لزوجتك أن تظل محتفظة بعلاقتها «الحميمة» مع ابنها الضال بالرغم مما ارتكب من جناية كبرى في حق أبيه وفي حق القيم الدينية والأخلاقية، بل ولا يجوز أيضا أن يكتفي ابنك الأكبر البار بأبويه والذي يرعى الله في كل تصرفاته، بإسداء النصح لأخيه بالحسنى مع استمراره في معاملته معاملة حسنة كما تقول، فمثل هذا الابن لا يستحق من كل أفراد الأسرة الا النبذ والقطيعة الصامتة الى أن يرجع عن غيه وأفراد الأسرة حين يفعلون ذلك فإنما يحسنون اليه في واقع الأمر لأنهم يعينونه على الرجوع عن الخطأ، ويشعرونه بأنه لا سبيل لقبوله بينهم الا بالندم على جريمته في حق أحد أبويه.. والاعتذار عنها..

فكيف يكون الحال حين تكون الأم «راضية» في السر أو العلن عما فعل مثل هذا الابن العاق بأبيه؟

وكيف يكون الحال حين تكون الأم سعيدة في أعماقها بما فعل لأنه قد عبر بما فعل عن مطالبها هي من زوجها بعد أن أصابها ما أصابه من سعار الطموحات المادية؟

ان الحكيم الصيني كونفوشيوس يقول لنا ان من يرتكب خطأ ما ثم لا يصلح خطأه انما يرتكب خطأ جديدا.

وابنك يرتكب كل يوم خطأ جديدا وإنما متجددا بعدم اصلاحه لخطئه معك واعتذاره عنه..

ولاشك انني أتفهم مشاعرك كأب ترجو في أعماقك أن يرجع ابنك عن خطئه في حقك ويندم عليه ويعتذر لك عنه فلا تجد من يعينك على تجاوز هذا الوضع المؤلم.. وتشعر بالغصة والمرارة في حلقك حين ترى من كان ينبغي لها أن تكون أكثر منك جزعا لخطأ ابنه في حق أبيه تتعامل معه وكأن شيئا لم يكن.. أو كأنه لم يفعل ما يطالبها دينها بأن تتخذ منه موقفا صارما من أجله.. ليس فقط ترضية لنفسك كأب حسير القلب بجحود ابنه، وإنما انقاذا لهذا الابن نفسه مما ينتظره من عقاب السماء في الدنيا والآخرة ان هو باء بغضب ربه عليه لجحوده لأبيه. بل وأيضا حماية لها هي نفسها من أن تجد نفسها ذات يوم قريب في نفس موقفك المؤلم وقد تطاول عليها هذا الابن العاق نفسه أو جحدها وتباعد عنها.. حين تنفد كل حيلها في اجتذابه اليها أو تعجز عن مسايرة أحلامه وطموحاته الخرقاء.

ورحم الله زمانا قال فيه القطب الصوفي أبو الحسن الشاذلي: نحن كالسلحفاة تربي أبناءها بالنظر!

وسحقا لزمان لم يعد يجدي فيه «النظر» في تربية الأبناء وإرشادهم الى ما فيه صلاح أمرهم ولم يعد يجدي فيه أيضا كل ما يقدمه بعض الآباء والأمهات من تضحيات وعطاء في تقويم هؤلاء الأبناء وإنقاذهم من سوء المصير..

فيا سيدي تمسك بموقفك في مقاطعة هذا الابن الضال الى ما لا نهاية حتى يندم على خطئه في حقك ويقدم لك الترضية الكافية والاعتذار الكامل عنه. ولا تكتف بالشكوك الصامتة في مباركة زوجتك لما فعل ابنك معك وإنما واجهها بها وطالبها بتحمل مسئوليتها التربوية والأخلاقية والدينية عن تقويم ابنها ورده عن الخطأ والخطيئة، والا تعينه على الاستمرار في غيه بالتعاطف الكاذب معه.. والإحجام عن اتخاذ الموقف الصارم الذي يطالبها به دينها تجاه ابن عق أباه اليوم، ولسوف يعق أمه غدا ان لم تبادر الآن باتخاذ الموقف الصحيح دينيا وتربويا منه، أما الآية الكريمة التي تمثلت بها في كربك وهمك بعقوق ابنك.. فكثيرا ما تلقيت استفسارات بعض قراء هذا الباب الذين استوقفتهم هذه الآية فتساءلوا: كيف يكون من الأبناء والأزواج عدو للإنسان ينبغي الحذر منه؟ وفي ذلك يقول المفسرون أن الأصل في العلاقة بين الأبناء والآباء والأمهات وفي العلاقة بين الأزواج والزوجات هي التراحم والتواد والتعاطف، وليست العداوة أو اتخاذ موقف الحذر والتربص بالآخرين، أما المقصود بأن منهم عدوا للإنسان ينبغي الحذر منه، فهو أن بعض الأبناء والأزواج قد يصرفون المرء عن طاعة الله بإلحاحهم عليه بتحقيق رغباتهم، وأنهم قد يكونون مشغلة وملهاة عن طاعة الله أو دافعا للتقصير في تبعات الإيمان، بما يرهقون به المرء من مطالب ورغبات.. واقتضى الحال التحذير من ضغط كل هذه المؤثرات على المرء والتذكير بأنه «إنما أموالكم وأولادكم فتنة»، لكنه ليس المقصود أبدا أن يكون الأبناء والأزواج أعداء بالمعنى الشائع للكلمة..

ولهذا جاء ختام نفس الآية الكريمة ليقول: «وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم» بمعنى أن يصفح الآباء والأمهات ويتجاوزوا عن السيئات التي تقبل العفو ويستروها عليهم فيغفر الله لهم بواسع رحمته..

غير أن خطيئة ابنك في حقك ليست مما يمكن التجاوز عنه أو التستر عليه قبل أن يرجع هذا الابن الضال عن إثمه.. ويندم عليه.. فيغفر له الله بصفحك عنك ما كان من أمره ومن ضلاله..

والسلام